

الملكة شجرة الدر

١

لما توفي السلطان الناصر صلاح الدين ملك مصر والشام في سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) ترك مملكة شاذلة ، ولكنها مفككة العرى ، وكانت وفاته خاتمة لعهد من أجد عهود الإمبراطورية الإسلامية المصرية ، ففيه حطمت المملكة الصليبية في فلسطين ، واستردت بيت المقدس (٥٨٣ هـ) ومزقت قوى الصليبيين في سائر الأنحاء . وخلف صلاح الدين في ملك مصر ولده الملك العزيز ، وكان نائبه بها ، وخلفه في الشام ولده الأفضل ، وفي حلب ولده المظفر . وبذا انقسمت المملكة المصرية الشاذلة إلى ثلاث ممالك ، وأخذت قواها التي حشدت من قبل مجتمعة لمحاربة الصليبيين ، تتبدد في سلسلة لانهاية لها من الحروب الأهلية ، ونشبت الحرب حيناً بين العزيز وأخيه الأفضل . ولما توفي العزيز بعد قليل في سنة ٥٩٥ هـ ، وخلفه على عرش مصر ولده المنصور طفلاً ، سنحت الفرصة للأفضل فقدم إلى مصر بدعوة من الأمراء ، واستولى على زمام الأمور بضعة أشهر ، ولكن الحرب نشبت بينه وبين عمه العادل وانتهى الأمر بهزيمته واستيلاء العادل على عرش مصر والشام . وهنا آانس الفرنج ضعف المملكة المصرية ، وقدمت حملة صليبية جديدة إلى مياه فلسطين ، وطمع الفرنج في استرداد بيت المقدس ، ونشبت بينهم وبين العادل عدة مواقع انتهت بعقد الهدنة بين الفريقين (٦٠٠ هـ - ١١٩٨ م) . وفي عصر الملك العادل هبط النيل هبوطاً شديداً ، وعانت مصر من القحط والغلاء أهوالاً مروعة يصفها لنا عبد اللطيف البغدادي نزيل مصر يومئذ وصفاً يرتجف له القواد فرقا (١) . وفي سنة ٦١٥ هـ عاد الصليبيون إلى مهاجمة مصر ، وزحفوا على مدينة دمياط ،

(١) راجع هذا الوصف في كتاب « الافادة والاعتبار » لبد اللطيف البغدادي (مصر) ص ٤٩ وما بعدها .

الملكة شجرة الدر

وسار الكامل ولد العادل ونائبه بمصر لمقاومتهم ؛ وقدمت عساكر الشام بقيادة أخيه الملك المعظم ، ولكن الصليبيين استولوا على دمياط بعد معارك شديدة ، وارتدت القوات المصرية إلى قرية المنصورة جنوبا ؛ ومات الملك العادل أثناء ذلك وخلفه على عرش مصر ولده الكامل ، وفي الشام ولده الملك المعظم . وحاول الصليبيون أن يسيروا من دمياط إلى الداخل ، ولكنهم ردوا على مقربة من المنصورة (٦١٨ هـ) . وانهى الأمر بعقد الصلح بين الفريقين على أن يخلى الفرنج دمياط ، ويستردوا بيت المقدس عدا الأحياء والمعاهد الإسلامية . وحكم الملك الكامل زهاء عشرين عاماً ، وامتد حكمه إلى الشام واستقرت الأمور في عهده وتوطدت أركان المملكة ، وانتعشت قواها المبددة . وتوفي سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) .

تخلفه على عرش مصر ولده الأصغر الملك العادل أبو بكر وكان نائبه بها ، وكان ابنه الأكبر الصالح نجم الدين نائباً عنه بحلب وبلاد الشرق فلم يرقه هذا التصرف ، ورأى أنه أحق بملك مصر من أخيه ؛ وسار في أنصاره معلناً الخلاف ، ووصل إلى جنوبي الشام بعد عدة وقائع وخطوب . وهنا دبر له الناصر داود صاحب الكرك كميناً وأسره وزجه سجيناً إلى القلعة مع بعض حشمه وجاريتيه شجرة الدر أم ولده خليل (صفر ٦٣٧ هـ) ، فلبث يرسف في أسره سبعة أشهر . ولما علم أخوه العادل باعتقاله أرسل إلى صاحب الكرك يطالبه بتسليمه نظير فدية كبيرة ، فأبى الناصر وطالب مقابل تسليمه بنيابة دمشق ؛ فعندئذ اتفق العادل مع عمه الصالح صاحب دمشق أن يسير كلاهما لقتال الناصر ويحصرانه بذلك من الشمال والجنوب . وفي أثناء ذلك تقام الناصر مع أسيره الصالح نجم الدين ، وأطلق سراحه وتحالف معه على أن يقطع الشام ويستقل هو بملك مصر .

وكان العادل ملكاً سيئ السيرة ، يقضى وقته في اللهو والمجون الصاخب ، ويطلق يد الندماء والعابثين في شؤون الدولة ، فحقد عليه معظم الأمراء ، وكانت منهم جماعة من المهاليك الكاملية تخشى سوء العاقبة وترى في الملك العادل فتى طائشاً لا يصلح للملك وتتربص الفرص للوثوب عليه . فلما سار العادل لمحاربة الناصر صاحب الكرك ، رأوا الفرصة سانحة للعمل فساروا إليه في معسكره ببليس ، وأحاطوا بخيمته وقبضوا عليه ، وكتبوا إلى الصالح نجم الدين يستدعونه

لتولى الملك . فسار الصالح إلى مصر في عصبته ، ودخل قلعة الجبل وجلس على العرش (٢٥ ذى الحجة سنة ٦٣٧) وقبض على أخيه العادل وزجه إلى ظلام السجن ، فلبث فيه عدة سنين ، ثم دس عليه الصالح من خنقه (٦٤٦هـ) ؛ وبذا لقي نهايته المحزنة .

٢

كان الملك الصالح نجم الدين حينما جلس على عرش مصر فتى في نحو الرابعة والثلاثين من عمره ، وكان مولده بمدينة القاهرة في سنة ٦٠٣هـ (١٢٠٦ م) وبها نشأ وترعرع . ولما استولى الفرنج على دمياط أيام أبيه الكامل (٦١٥هـ) وعقد الصلح بينهم وبينه ، أرسله أبوه مع نفر من الأمراء رهينة إلى الفرنج مقابل رهائهم حتى تنفذ شروط الصلح . ولما استولى الكامل على الديار الشرقية (آمد وغيرها) عين ولده الصالح نائباً عليها (٦٢٩هـ) ثم أرسله في سنة ٦٣١هـ لمقاتلة الروم (البيزنطيين) . ولبت الصالح نائباً على الديار الشرقية ، حتى توفي أبوه في سنة ٦٣٥هـ ولقي ما لقي من الخطوب حتى استطاع أن يستخلص عرش مصر لنفسه من أخيه العادل حسبما قدمنا .

ودخل الصالح مصر في أواخر سنة ٦٣٧هـ ومعه شجرة الدر حظيته وأم ولده الأصغر خليل . وقد كان مقدم شجرة الدر يومئذ ، فيما يبدو ، أول عهدا بمصر . ولا تذكر الرواية اسمها قبل ذلك إلا حينما سجنت مع سيدها في قلعة الكرك قبل ذلك بأشهر قلائل ، وهو في طريقه إلى مصر . وتقول لنا الرواية إنها كانت في صحبة الصالح مذ كان نائباً عن أبيه بالمشرق ، ثم صحبته عند سيره إلى مصر ، وشاطرته آلام المحنة والاعتقال بشجاعة وصبر .^(١) فمن هذه المرأة التي سطعت غير بعيد في بلاط مصر ، والتي قدر لها أن تتولى عرش مصر فيما بعد ، وأن تغدو بتبوتها الملك مثلاً فريداً في صحف التاريخ الإسلامي ؟

كانت شجرة الدر حسبما تصفها الرواية « جارية » تركية أو أرمنية أرومية ، اشتراها الملك الصالح أيام إقامته بالمشرق . وهنا يبدو السبب في مجز الرواية عن

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٣ .

أن تقدم إلينا شيئاً عن حقيقة أصلها ونشأتها ، فهي لم تكن إلا واحدة من ألوف الجوارى اللاتي كانت تعص بهن قصور الخلفاء والسلاطين في تلك العصور ، ولا تعرف الرواية عنهن شيئاً إلا حيناً يسطع نجمهن فيغدون « أمهات ولد » ينجبن الخلفاء والسلاطين ، أو يجزن بذكائهن وقوة سحرهن إلى ميدان السلطة والنفوذ ، ويشاطرن في توجيه الشؤون .

وهكذا فإننا نقف على ذكر شجرة الدر لأول مرة في سنة ٦٣٧ هـ وهي مع سيدها الملك الصالح في طريقه إلى مصر ، وتصفها الرواية عندئذ « بجاريته وحظيته وأم ولده خليل » . وإذن فقد كانت شجرة الدر عندئذ ما تزال جارية وأم ولد فقط ، ولم تكن قد غدت زوجة شرعية للملك الصالح . وقد كان ولدها « خليل » يومئذ فيما يبدو طفلاً لا يتجاوز بضعة أعوام ثلاثة أو أربعة ، وقد مات كما نعلم وهو ما يزال في طور الطفولة . وتزيد الرواية على ذلك أن شجرة الدر حينما زُجّت مع سيدها إلى قلعة الكرك ، كانت حاملاً فأسقطت غمًا وروعاً . فإذا فرضنا أن هذا هو حملها الثاني بعد ولدها خليل ، وإذا ذكرنا أن سيدها الملك الصالح اشتراها مذ كان نائباً بالمشرق حوالى سنة ٦٣٠ هـ فإننا نستطيع أن نقدر سنها حين دخولها إلى مصر على الأقل بنحو خمسة وعشرين عاماً .

وكانت شجرة الدر امرأة بدیعة الخلال وافرة الجمال والسحر ، حسنة الثقيف ، بارعة في القراءة والكتابة . وتنوّه الرواية فوق ذلك بوفرة ذكائها ودهائها وحسن تصريفها للأمر . وإذن فلم تكن شجرة الدر غانية قصر فقط ، ولكنها كانت فوق ذلك تتمتع بشخصية قوية ، وقد استطاعت غير بعيد أن تحوز بخلالها وقوة نفسها مكانة ممتازة لدى سيدها ، فكانت حظيته الأثيرة ، وتوثقت مكاتها بمولد ولدها خليل ، وبرزت الأمومة من بين صفاتها فعرفت « بأم خليل » وغلب عليها هذا اللقب حتى بعد وفاة ولدها ، ولازمها طول حياتها ، ولقبت به حين تولت العرش فعرفت « بالمللعة عصمة الدين أم خليل شجرة الدر » (١)

(١) تختلف الرواية الإسلامية في صفة اسم المللعة شجرة الدر ، فتذكر بعض الروايات أنه شجر الدر وليس شجرة الدر . ومن أورده بالصيغة الأولى أى شجر الدر جمال الدين ابن واصل وهو مؤرخ معاصر وقد ذكرها على هذا النحو مراراً في كتابه « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » (مخطوط دار الكتب ج ٢ لوحة ٣٣١ و ٣٦٢) .

ولما ابتسم الدهر للملك الصالح، وتولى عرش مصر تألق نجم جاريته وحظيته شجرة الدر إلى جانب نجمه . وكان فوق حبه العميق لها يقدر مواهبها ، ورجحان عقلها ؛ وكانت مذجع القدر بينهما تعاونه في تدير الأمور بحكمتها وصائب رأيها، فلم تلبث أن تموت في البلاط وفي الدولة أسمى مكانة ، وغدت ملكة غير متوجة ، يغلب نفوذها وسلطانها كل نفوذ وسلطان ؛ ولم تلبث أن غدت مرجع الأمر والنهي كله . ورأى الملك الصالح أن هذه المرأة الموهوبة الساحرة التي فتنته بخلاها الرفيعة ، تستحق أن تكون أكثر من حظية وأم ولد ، فأعتقها وتزوجها . ولم تبق شجرة الدر بعد جارية تسمو بجمالها وسحرها ولكنها غدت غير بعيدة سيدة القصر الشرعية . كانت هذه الجارية التركية أو الرومية تلعب يومئذ في بلاط القاهرة نفس الدور الذي لعبته من قبل صبيح النافارية جارية الحاكم المستنصر وأم ولده المؤيد في بلاط قرطبة . ولما توفي ابنها خليل طفلاً بعد ذلك بقليل ، لم تصدع هذه الضربة الأليمة من مركزها بل لبثت محتفظة بنفوذها وسلطانها .

(٣٧٢) وكذلك أبو الفداء في تاريخه (ج ٣ ص ١٤٠ و ١٤١ و ١٤٢ و ١٩٢) وابن خلدون (ج ٥ ص ٣٦٢ و ٣٦٣ و ٣٧٧) وأخذ بعض المستشرقين بهذه التسمية (دائرة المعارف الإسلامية في مقال شجر الدر ، وكذلك المستشرق لايون بول في كتابه عن تاريخ مصر ص ٢٥٥) ولكن فريقاً آخر من المؤرخين ولا سيما المتأخرين يأخذ بالتسمية الأخرى أعني شجرة الدر ومن هؤلاء الصفدي في « الوافي بالوفيات » وابن قراوغلي في « مرآة الزمان » (وقد نقل عنها صاحب النجوم الزاهرة) والمقرئ في كتاب السلوك وفي الخطط وابن شاكر الكتبي في (فوات الوفيات ج ١ ص ٩٧) وابن تفرى بردى في (النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٣ وما بعدها) ولو أنه في كتابه المنهل الصافي يسميها شجر الدر (مخطوط دار الكتب ج ٢ ص ١٧٦ و ١٧٧) والسبوطي في حسن المحاضرة (ج ٢ ص ٣٨ و ٣٩) وابن إياس في (بدائع الزهور في ج ١ ص ٨٩) . ومن الغريب أن ابن خلكان وهو قريب من هذا العصر لا يذكر اسم شجرة الدر في سائر المواضع التي لها علاقة بها مع أنه يتحدثنا عن حياة الملك الكامل والصالح والعاقل وغيرهم .

ومع أنه يبدو أن اسم شجر الدر هو التسمية الأصح من الناحية الرسمية خصوصاً وأن ابن واصل وهو مؤرخ معاصر عرف الملكة واتصل ببلادها يؤيد هذه التسمية فانه يلوح لنا من جهة أخرى أن اسم شجرة الدر هو الاسم النال الذي كانت تعرف به الملكة في البلاط وفي الحكومة ، أو ببساطة أخرى هو الاسم الشعبي الذي غلب عليها . ولهذا فضله وأخذ به معظم المؤرخين المصريين وفي مقدمتهم المقرئ . وقد رأينا نحن من جانبنا أن تأخذ بهذه التسمية الأكثر ذيوفا .

وكان الصالح نجم الدين ملكاً متين الخلق وافر الحشمة شديد الهيبة ، عمقت المحون والعبث ، ويؤثر العزلة ويميل إلى صحبة أهل الفضل والتقى ، ولا يختلط كثيراً بالشعب . وكان يكل شؤون الدولة إلى كتابه ، وله شغف خاص بلعب الصواجحة ، وإنشاء الأبنية الفخمة . وأما شجرة الدر فتصفها الرواية بأنها كانت إلى جانب خلاها الشخصية البديعة امرأة وافرة الهيبة تميل إلى التدين وتشغف بحب الخير وأعمال البر ، ولها في هذا السبيل ما أثر لا تحصى . (١)

ولم يكن للملك الصالح في الوقت الذي بلغت فيه شجرة الدر أوج نفوذها سوى زوجة حليلة أخرى وهي المعروفة ببنت العالمة ، وكانت زوجاً للمملوك الجوكندار (حامل الصولجان) . فلما توفى تزوجها من بعده . ولم يكن بين جواريه العديداً من تدانى شجرة الدر في مركزها أو تتسامى إلى نفوذها .

٣

ومعنى الملك الصالح منذ تبوئته العرش بإصلاح الأمور وتوطيد الدولة ، وتوثيق روابطها المنككة ، وحالفه التوفيق فاستولى على دمشق من عمه الصالح إسماعيل وعين نائبه بها صاحب جمال الدين يحيى بن مطروح ، وعين ولده المعظم توران شاه نائباً على البلاد الشرقية . واستولى بعد ذلك على عسقلان ، وانتزع الكرك وأعمالها من صاحبها الناصر داود حليفه القديم . ولم تمض أعوام قلائل حتى استطاع أن يبسط سلطانه على معظم أنحاء المملكة المصرية القديمة وأن يقضى على أطماع الخوارج والمتغلبين في النواحي .

وحالفه التوفيق أيضاً في محاربة الصليبيين فهزمهم في عدة وقائع محلية ، وزحف جنده على بيت المقدس وهزموا الفرنج وأحرقوا أحياءها النصرانية التي سلمت إليهم أيام الملك الكامل ، وأعادوها إلى حظيرة الإسلام مرة أخرى (٦٤٢ هـ ١٢٤٤ م) .

والملك الصالح هو منشىء فرقة المماليك البحرية التي لعبت أعظم دور في تاريخ مصر في القرنين السابع والثامن للهجرة (الثالث عشر والرابع عشر من الميلاد)

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٩ .

وتبوأ عرش مصر منهم ثبت حافل من الملوك العظام . وكان الملك الصالح يشغف باقتناء المماليك الترك ، وقد اقتنى منهم عدداً وافراً حتى ضاقت القاهرة بهم ، وضج الناس من عبثهم واعتداءاتهم على النفس والمال ، وهو مما وصفه شاعر العصر بقوله :

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ترك بدولته يا شر محبوب
قد أخذ الله أيوباً بفعلته فالناس كلهم في ضر أيوب

عندئذ رأى الصالح أن يبعدهم عن العاصمة ، فابتنى لهم في جزيرة الروضة على مقربة من المقياس قلعة خاصة أسكنهم بها ، وسماهم المماليك البحرية ، وزوهم بأسطول نهري من الشوانى المسلحة التي أعدت لقتال الصليبيين ، وكانت عدتهم زهاء ألف مملوك ، وقد عرفوا فيما بعد برجال (الحكمة) أو الحرس السلطاني ، وكانوا بما أثر عنهم من الشجاعة والبراعة في القتال قوة لا يستهان بها .

وأصاب الملك الصالح في أواخر عهده مرض عضال بدت أعراضه الخطيرة في أوائل سنة ٦٤٦ هـ وقد وصف بأنه ناسور وعسر بول تلتته قرحة في الرئة . وكانت حوادث الشام يومئذ تزعج السلطان حيث استولى لؤلؤ الأمينى صاحب حلب على حمص ، فسار السلطان بالرغم من مرضه إلى الشام لإيجاد حمص ، وحمل في محفة ، وهناك بلغته الأنباء بأن حملة صليبية ضخمة في طريقها إلى مصر . فاضطر إلى النزول عن حمص للمتغلب عليها ، وعاد إلى مصر في محفته ، وقد اشتد به المرض ، ونزل بقواته في أشموم طنّاح على مقربة من دمياط التي كانت في ذلك الحين مجاز الصليبيين المفضل لافتتاح مصر ، وكان ذلك في المحرم سنة ٦٤٧ هـ .

والواقع أن مصر كانت تواجه عندئذ أعظم حملة صليبية سيرت إليها ، وهي الحملة الصليبية السابعة التي قصدت مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا المعروف بالقدّيس لويس . وكان الغزاة قد أمضوا الشتاء في قبرص ثم ساروا إلى مصر في أسطول ضخم ، ووصلوا إلى المياه المصرية تجاه دمياط في ٢١ صفر سنة ٦٤٧ هـ (يونيه سنة ١٢٤٩) . وفي الحال أوفد لويس التاسع رسلاً إلى ملك مصر بكتاب يندره فيه بوجود الخضوع والتسليم ، ويؤكد له أن المقاومة عبث وأنه سيصل إليه بالرغم من كل شيء ، وأنه جاء بمسكّر كمدد الحصى . وكان الملك الصالح

مريضاً كما قدمنا ، وكان البلاط في حيرة ، ولكن شجرة الدر كانت يومئذ إلى جانب السلطان ، وكانت تبعث بشجاعتها وثباتها إلى السلطان وبلاطه روح الثقة والعزم . فلما وصل كتاب ملك الفرنج حزن السلطان واغرورقت عيناه بالدمع ، ولكنه تذرّع بالشجاعة والأمل ، وبعث إلى ملك الفرنج بكتاب من إنشاء كاتبه القاضي بهاء الدين زهير الشاعر الأشهر يرد فيه الوعيد بالوعيد ، وبنوه بقوة مصر وما أحرزته على الصليبيين من الانتصارات ، وينذر فيه ملك الفرنج بأنه سيغدو صريع عدوانه وبغيه .^(١)

وفي اليوم التالي نزل الفرنج إلى البر ، وكان السلطان قد حصن دمياط وشحنها بالمقاتلة والسلاح ، وكان من المنتظر أن تقاوم الغزاة مدى حين . ولكن الفرنج حينما نزلوا إلى البر الغربي ، ووقعت بينهم وبين المسلمين المناوشات الأولى انسحب المسلمون إلى البر الشرقي ، وعندئذ دب الذعر إلى الحامية ، فما كاد الليل يرخي سدوله حتى غادر المسلمون قواعدهم وارتدوا إلى المعسكر السلطاني في أشموم طنّاح ؛ وهرع في أثرهم أهل دمياط . فارين هلعين ، ودخل الفرنج دمياط في صباح اليوم التالي دون قتال ولا مقاومة ، واستولوا على ما فيها من الذخائر والأقوات الوفيرة . واستشاط السلطان حنقاً لما وقع وعنف قائد الحامية المهزومة الأمير نجر الدين يوسف ، وأمر بخنق عدة كبيرة من مقدمي الجند جزاء جبنهم وتخاذلهم .

ثم ارتد السلطان بمعسكره محمولا في محفته إلى المنصورة ، وهي المحلة التي أنشأها أبوه الملك الكامل على النيل حينما هاجم الصليبيون دمياط لأول مرة في سنة ٦١٥ هـ ونزل بقصرها المتواضع . وأمر السلطان بتجديد المنصورة وتحصينها ، وإعدادها لنزول الجند ، واجتمعت القوات المصرية في تلك القاعدة الجديدة ، وقدم أسطول نهري من الشوانى الحربية ورباط في النيل تجاه المدينة ، وأنفذت الأوامر بحشد الجند إلى سائر الأنحاء ، وتوافد على المعسكر السلطاني سيل من الجند المتطوعة والعربان ، وبذل المسلمون غاية جهدهم في الإهبة لمواجهة الخطر الداهم . وكان الفرنج في أثناء ذلك قد استقروا بدمياط وشحنوها بالمقاتلة والسلاح ، وأخذوا يتأهبون للزحف صوب الجنوب .

(١) راجع نس هذين الكتاين في « السلوك في دول الملوك » للمقرئى ج ١ .

وكانت المناوشات تقع أثناء ذلك سجالات بين المسلمين والفرنج ، وكلما سقطت جماعة من الفرنج أسرى في يد المسلمين أرسلت إلى القاهرة وطيف بها لتقوية الروح المعنوية لدى الشعب القاهري الذي ساد عليه الوجود منذ سقطت دمياط . واستطاعت عساكر الشام من جهة أخرى أن تهاجم الصليبيين وأن تنتزع منهم مدينة صيداء ، فجاء سقوطها معزراً للثقة والأمل .

واستمر الأمر على ذلك زهاء ستة أشهر من صفر إلى أوائل شعبان (من يونيو إلى نوفمبر سنة ١٢٤٩) والسلطان الصالح أثناء ذلك يعاني أوصاب المرض ويسير إلى الموت بخطى بطيئة . وفي أوائل شعبان اشتدت عليه وطأة السل ثم أصابه إسهال عجل بالخاتمة ، فتوفي في قصره المتواضع بالمنصورة ليلة ١٥ شعبان سنة ٦٤٧ هـ (٢١ نوفمبر سنة ١٢٤٩ م) وهو في الرابعة والأربعين من عمره . وأوصى قبيل موته بالعرش لولده الملك المعظم توران شاه نائبه في الديار الشرقية ، وكان يومئذ في حصن كيفا من أعمال ديار بكر ، فأنفذت إليه الكتب تدعوه إلى مصر على عجل .

٤

كانت وفاة السلطان في تلك الآونة العصبية ضربة مؤلمة ، وكانت كفيلاً بأن تقضى على كل تدبير وأهبة للقاء العدو المغير . ولكن القدر كان رحيماً بمصر ، وقد شاء القدر أن يختار لإيقاد الموقف واتقاء الكارثة ، تلك الشخصية القوية الحازمة ، شجرة الدر .

كانت شجرة الدر إلى جانب زوجها السلطان المريض في قلب المعسكر السلطاني ، تشرف على تدبير الشؤون وإنقاذ الأوامر بمعاونة رجال الخاص المخلصين ، وفي مقدمتهم الأمير نجر الدين يوسف ، ومحسن الطواشي . وكانت ترقب سير المرض بجزع ، وتتوقع موت السلطان من وقت لآخر . فلما وقعت الخاتمة المحزنة ، كانت على قدم الأهبة ، وكانت قد قررت أمرها ، واتخذت أهبتها لمواجهة كل احتمال . كانت تلك المرأة الذكية تعرف أن وفاة السلطان سوف تثير الأحقاد الدفينة ، وتمزق وحدة الجيش والامة ، وتدكي ضرام الحرب الأهلية المخربة ، كل ذلك والبلاد تواجه خطر الغزو الداهم ، والعدو المغير جاثم في أرضها يتأهب لا تزال ضربته القاضية .

وهنا تبدو عبقرية تلك المرأة المدهشة . ذلك أن السلطان ما كاد يسلم النفس الأخير ، حتى استدعت الأمير نغر الدين يوسف كبير الخصاص ، ومحسن الطواشي وأوصتهما بكتمان موت السلطان خوفاً من سوء العواقب ، واتفقت معهما على تدبير أمور الدولة حتى يحضر ولد السلطان الملك المعظم من حصن كيفا ، فأذعنا للأمر . وكان الأمير نغر الدين رجلاً وافر العقل والتدبير ، فبذل لتنفيذ هذه الخطة ، أصدق العون ، فأخذ العهد على كل من وقف على موت السلطان من رجال الخصاص والأطباء والعلماء ، وتولى غسل جثمان الملك أحد الأطباء المعالجين ، ووضع الجثمان في تابوت حمل تحت جناح الظلام إلى الروضة ، ثم دفن فيما بعد في تربته بجوار المدرسة الصالحية بالقاهرة . وبقيت الخدمة السلطانية على حالها ، والأمراء يحضرون للخدمة كالعادة ، وشجرة الدر تقول لهم « السلطان مريض ما يصل إليه أحد » . وكان السباط السلطاني يمد في مواعيده ، وكان السلطان حتى يتناول طعامه كالمعتاد ، وكانت الأوامر والكتب والمناشير تخرج كل يوم مmhورة بالعلامة السلطانية (توقيع السلطان) . وهنا تختلف الرواية في تفسير هذا اللغز المحكم ، فيقول البعض إن السلطان حينما شعر بدنو أجله وقع على عدد كبير من الأوامر للاستعانة بها على إخفاء موته حتى يحضر ولده . ويقول البعض الآخر إن شجرة الدر كانت لبراعتها في الكتابة تقلد العلامة السلطانية على الأوامر بمهارة . وفي رواية نالثة أن الذي كان يقوم بتقليد العلامة السلطانية هو غلام من غلمان السلطان يدعى سهيل^(١) .

وعلى أى حال فقد استطاعت شجرة الدر أن تنفذ خطتها الجريئة ببراعة تثير الإعجاب . وفي غداة وفاة السلطان استدعت أمراء المسكر وقالت لهم إن السلطان قد رسم بأن يخلقوا له ولابنه الملك المعظم توران شاه ، أن يكون سلطاناً بعده ، وللأمير نغر الدين يوسف أن يقوم بقيادة الجيش وتدبير أمور المملكة ، فأذعن الأمراء للأمر باعتبار أن السلطان ما يزال حياً ، ولكن يعجزه المرض عن القيام بالأمر . وأنفذت شجرة الدر في نفس الوقت إلى الأمير حسام الدين نائب السلطان بالقاهرة أمراً مهوراً بالعلامة السلطانية أن يقوم بتحليف أكابر الدولة

(١) راجع ابن واصل في «مفرج الكروب» (مخطوط دارالكتب ج ٢ لوحة ٣٦٢) والسلوك في دول الملوك (ج ١-٢ ص ٣٣٩ و ٤٠٣) والنجوم الزاهدة عن مرآة الزمان (ج ٦ ص ٣٣٣) .

الملكة شجرة الدر

ومقدمى الجند بالقاهرة على ماتقدم، فقام بتنفيذ الامر بمحضرة قاضى القضاة
وكتب الانشاء الشاعر بهاء الدين زهير، وصدرت الأوامر إلى خطباء الجوامع
بالدعاء للملك المعظم توران شاه بعد الدعاء لأبيه .

وسارت الامور حيناً على هذا النحو والامير نحر الدين يوسف يقوم بتدبير
الشؤون وإنفاذ الأوامر باشراف شجرة الدر وتوجيهها . وسار لاستدعاء الملك
المعظم من حصن كيفا زعيم المماليك البحرية فارس الدين أقطاي .

محمد عبد الله عناه

(البحث بية)

[Faint, mostly illegible handwritten text, likely bleed-through from the reverse side of the page.]